من آثار الخطابة النبوية في إصلاح المجتمع البشري

عبد الله محمد الغالي

ملخص البحث:

الخطابة فن من فنون النثر الفني القديم، وهي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستماله، ومن المعروف هو أن أزهى العصور للخطابة هو العصر الجاهلي والعصر الأموي، لأنها ازدهرت فيهما الخطابة الدينية والسياسية والمحفلية وضعفت في العصر العباسي وفي العصور التالية، لأنها محصورة في خطب الجمعة والأعياد ثم نهضت في العصر الحديث لعوامل السياسية والاجتماعية والدين. ولقد تعمق فيها كثير من الأدباء منذ العصر الجاهلي إلى اليوم، كانت ولا تزال أداة اتصالية بالجمهور في كل الجوانب الحياتية منذ القدم دينية واجتماعية وعلمية وسياسية. وهي تستعمل للحصول إلى قلوب المستمعين والقارئين بالأساليب الخطابية في السلم والحرب. هذا وتعتبر الخطابة النبوية من أهم مظاهر الدعوة والوعظ والإرشاد والتعليم والتوجيه والتدريب، يستمع إليها الصحابة ومن بعدهم من المسلمين في أيام الجمع في كل أسبوع والعدين من كل سنة منذ عصر الإسلام إلى يومنا هذا، وقد سلك الصحابة رضي الله عنهم والعلماء المثاليون هذا المنهج الدعوي في حل مشاكل المجتمع ومعالجة أمراضه وإخراجه من مهوى الضلال والفساد. كما أصبحت الخطابة النبوية شريعة في موسم الحج وفي كل المناسبات الإسلامية جميعا. وفي هذه المقالة المتواضعة نقصد إبراز آثار الخطابة النبوية في إصلاح المجتمع البشري برفعه من المستوى الأدنى الحيواني إلى المستوى الأعلى البشري مستعينا ببعض الخطب النبوية من كتب الأدب الموجودة في متناولنا. سائلين المولى العظيم أن ينفع به الجميع.

المقدمة

هذه المقالة المتواضعة بعنوان من آثار الخطابة النبوية في إصلاح المجتمع البشري تتناول النقاط التالية: تعريف الخطابة لغة ودلالة، ثم أنواع الخطابة، ثم خصائص الخطابة ومميزاتها، ونبذة تاريخية عن حياة الخطيب رسول الله ص، ثم عرضنا ثلاثة نماذج من خطبه ص، الخطبة الأولى عند بعثته والثانية يوم فتح مكة والثالثة في حجة الوادع، ثم تحدثنا عن مناسبة الخطبة الأولى وتحليلها والتعليق عليها وإخراج آثار إصلاح المجتمع فيها، ثم تناولنا الكلام عن مناسبة الخطبة الثانية وتحليلها والتعليق عليها وإبراز وجوه آثار الخطبة في إصلاح المجتمع البشري، كما أشرنا إلى مناسبة الخطبة الثالثة وتحليلها وتعليق عليها ثم إظهار آثار الخطبة في إصلاح وتصنع المجتمع البشري الصالح، ثم المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات في المجتمع، ثم حرصه ص على غرس روح التعاون والإخاء في المجتمع، ثم بيان حقوق الزوجية والتوصية بالمرأة، واختتمنا بالكلام عن الميراث الإسلامي ثم الخاتمة.

تعريف الخطابه:

كلمة الخطابة أو الخطبة في اللغة: أصلها من خطب يخطب من باب نصر ينصر، يأتي مصدرها: خطبة وخطبا وخطابة والخطبة جمعها خُطَبُ مثل غُرْفَة وغرف. وخطيب القوم هو المتكلم عنهم وجمعه خطباء.١ ومن معانيه في اللغة في المعجم الوسيط: هو» خطب الناس وخطب فيهم وعليهم: خطابة وخطبة: بمعنى ألقى عليهم خطبة. ومنها خطب فلانة، خَطْبا، وخطبة: أي طلبها للزواج»٢.

أما تعريف الخطابة أو الخطبة دلالة هو الكلام المنثور يخاطب بها متكلم فصيح جمعا من الناس لإقنائهم واستمالتهم وتوجيههم وتعليمهم وإرشادهم، وعرف أرسطو الخطابة قائلا: «إن الخطابة هي القدرة على النظر في كل ما يواصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل٢ ومعنى هذا هو أن الخطابة هي الطريق

الذي يصل بها الإنسان إلى أذهان ووجدان الناس مشافهة، ويحرك فيهم الحماسة والشهامة والعزة والشرف والمروؤة وحب الخير وترك الشر. وهذا يتطلب من الخطيب في إلقاء الخطابة أو الخطبة اعتماده على اللغة السيلمة والعبارات القيمة والمعنى المؤثر لكي يمتلك قلوب المستمعين والقارئين له وليسيطر على وجدانهم بقوة أسلوب أدائها وإقناعهم بما يقدم من الحجج والبراهين.

معنى الخطابة النبوية:

وبعد تعريف الخطابة لغة ودلالة، فجدير بنا معرفة المقصود بالخطابة النبوية عند العلماء والأدباء لكي نميزها من غيرها من الخطب الموجودة في كتبنا الأدبية والدينة وغيرها، فمعنى الخطابة النبوية هو كلام وخطاب رسول الله الذي يوجه به إلى المصلين في المسجد أو في المصلى في أيام الجمع أو أيام الأعياد والمناسبات الإسلامية الأخرى، ولقد أصبحت سنة من سننه ص، إذ أنه كان يصعد على المنبر كلما أراد أن يكلم الناس إما لإثباتهم على الحق أو تحويلهم عن الباطل. كما أشار إلى ذلك حديث أنس بن مالك: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ص يسألون عن عبادة النبي ص فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ص؟ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ص -فأخبر بالحادثة فصعد المنبر – فقال ما بال أقوام قالوا كذا كذا: والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»٣

ومن ثم فقد اتخذ الخطابة أنواعا مختلفة في الأدب النثري عبر العصور المتعاقبة، انطلاقا من العصر الجاهلي إلى الحديث، وقد حظى بحظوظ فائقة في العصر الإسلامي حيث كان عنصرا أساسيا اعتمد عليه النبي ص والصحابة في الدعوة والإرشاد، حتى غلبت الخطبة على الشعر الذي تعرفه العرب في جاهليتهم، كديوانهم. إذ كانت خطب الرسول الأكرم ص أشد اعتمادا واعتناء وأقوى تثبيتا في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم.

أنواع الخطابة:

للخطابة أنواع كثيرة منها ما كانت سياسية، وقضائية، واجتماعية، ومحفلية، ورثائية، ودينية، ونكاحية. نتحدث فقط عن الخطابة السياسية والاجتماعية والدينية في هذه الورقة خوفا من ضيق الوقت وحجم الورقة.

النوع الأولى: الخطابة السياسية:

«يعنى بالخطبة السياسية التي توجه من حكومة الدولة إلى وجهة معينة سواء في علاقاتها الخارجية أو أعمالها الداخلية، فهي الخطب الموجة من الرئساء أو الملوك أو القاداة نحو جمهوريتهم، وتدخل ضمنها الخطب الحماسية وخطب الوفود وفيها تدور الخطبة حول الشؤون العامة للدولة، وقد تشمل الخطبة التي تلقى في البرلمان وفي المجتمعات الإسلامية والمؤتمرات السياسية»٤ هذا وليس كل خطبة السياسة مما ينال قبولا لدى السامعين، وكثيرا ما ينصب السامعون احتراما للخطيب، ولكنهم غير مقتنعين برأيه، ونجاح الخطبة يقوم على الإقناع والاستمالة، كما قلنا سابقا.

النوع الثاني: الخطبة الاجتماعية:

فهي التي تلقى في المناسبات والأسواق الموسمية، مثل الخطب التي تدعو إلى الصلح والمحبة بعد طول اقتتال، وخطبة النكاح (ذات التقاليد الخاصة) وتكون الخطبة الاجتماعية تلك الخطبة التي تلقى في موضوع يهم المجتمع ويعود عليه ببعض الفوائد. وفي هذا النوع تلقى في المحافل والمجالس التي لها ارتباط بالنشاط الإنساني الاجتماعي، ومن أمثلتها: «أن يدعو خطيب القرية أو البلدة لإنشاء مدرسة أو ناد بها يقترح شق ترعة أو إقامة جسر، وما إلى ذلك».٥ ولنجاح مثل هذه الخطبة فعلى الخطيب أن يعرض مشروعه وفوائده، وأن يتوسع في هذا الجانب ليرى أن نفعه يعم الفقراء والأغنياء ويرفع مستوى المجتمع، كما يذكر أمثلة المشروع ونظائر له من مشروعات أخرى، وإعداد العبارات وتنسيق الأسلوب الخطابي الجيد والاستشهاد بالأحداث والأحاديث

وآيات القرآن وأبيات الشعر، مما يثير عواطف السامعين ويميلهم للإقبال على ما يدعو له الخطيب.

النوع الثالث: الخطبة الدينية

الخطبة الدينية هي التي تعتمد على تعاليم الدين أو تلقى لغرض من أغراضه، فهي تشمل الخطبة المنبرية التي تلقى في الجمع والأعياد ويوم الحج الأكبر وعند صلاة الاستسقاء. كما تشمل المواعظ والخطب التي تلقى في المجتمعات الدينية أيا كانت، وتلقى الخطب الدينية تستند في معانيها وأغراضها إلى الدين، ويستشهد الخطيب لما يطلب فيها بآيات القرآن الكريم والحديث الشريف، فهذه كلها خطب دينية، وأهمها جميعا هي خطبة الجمعة لتكررها ولأنها فرض لا تصح الصلاة إلا بها. والخطب الدينية أشق أنواع الخطب جميعا فإذا استهان بها الخطيب وجعلها أمرا تقليديا هانت وسقطت وأصبحت عديمة الفائدة المنشودة نهائيا. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد هو أنه لما جاء الإسلام أصبحت الخطب الدينية في المسجد تؤدي مهمة الخطب السياسية ومهمة الخطب الاجتماعية لأنه كان يعطي للخطابة دورا رئيسيا في أسلوب دعوته وطريقة وعظه وهدايته وتلقى في المسجد أوقات الأعياد وأيام الجمع وساعات اللقاء مع الجماهير في الحرب والسلم. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الخطب المنبرية وسيلة إصلاح الفرد والجماعة في العالم الإسلامي خاصة وفي العالم برمته. وكان الرسول ص والخلفاء الراشدون من بعده خطباء مفوهين وردت إلينا عنهم خطب رائعة في مناسبات مختلفة وموضوعات متعددة ومن ذلك ما نقدم من خطبه ص في هذه الورقة إن شاء الله تعالى.

خصائص ومميزات الخطابة:

من خصائص ومميزات خطب الرسول ص ما يلي:

١- بدؤها بحمد الله والصلاة على رسوله
٢- عذوبة ألفاظها ومتانة أسلوبها وقوة تأثيرها.
٣- الاقتباس من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية، والنصوص الأخرى مما تناسب الموضوع
٤- ومن مميزات الخطابة منذ العصر الجاهلي وأقرها الإسلام وقوف الخطيب على نشر من الأرض أو على راحلته ممسكا بعصا٨ كون الخطيب مهيب الجانت، قوي الخيال والحجة، فصيح اللسان، جهير الصوت ذات نبرة محببة مؤثرة٩.
٥- تتميز بإقناع الجماهير واستمالتهم، وسيطرة على قلوبهم وإمتاعهم.
٦- تقوم على اللغة السليمة والمعنى المؤثر لتمتلك ناصية الأمر، ووصول إلى قرار النفس وامتلاك زمام الوجدان والشعور وتسيطر على النفوس بقوة إقناعهم لما تقدم من الحجج والبراهين.
٧- تكون قصيرة لأن قصرها تلبسها روعة٦ وقد تكون طويلة، ولكل موضوعه وموقفه. قيل لأبي عمرو بن العلاء: «هل كانت العرب تطيل في خطبها فقال نعم، فقيل له: وهل كانت تؤجز؟ فقال نعم ليحفظ عنها، ولكل مقام»٧.

نبذة عن حياة الخطيب محمد رسول الله ص

هو محمد بن عبد الله بن هاشم ص ولد رسول الله ص يوم الإثنين عشرة لية خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل الموافق لأغسطس عام ٥٧٠ ميلادية في دار المولد المعروفة بدار محمد بن يوسف أخي الحجاج ابن يوسف، وهي الآن مكتبة عامة، وكانت ولادته ص بعد غزو أبرهة الأشرم وهزمه بقرابة خمسين يوما فكانت تلك الهزيمة آية أخرى لمحمد ص دالة على صدق نبوته وصحة رسالته وعظم شأنه٨. هذا، ولم تكن سيرة الرسول ص كسيرة أقرانه من أهل مكة بل امتاز عنهم بصفات متعددة لأنه ربي وصنع وضبغ ليقوم بمهام الرسالة والنبوة، فكان نبيا بل رسولا بل من أولي العزم من الرسول بل أفضلهم بل أفضل ولد آدم على الإطلاق، وكيف لا وهو رسول رب العالمين ابن الذبيحين نبي الله إسماعيل ووالده عبد الله.

عموم رسالته وعالميته:

إن تعاليم وهدي رسالة محمد ص جاءت عامة تخاطب الناس جميعا على مختلف فئاتهم وأنواعهم وفي جميع مجالاتهم في المجتمعات البشرية قاطبة. هذا فالدين الإسلامي

مشاع وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب، والعناصر والأجناس، والأسر والبيوتات، والبلاد والأوطان، ليس فيه احتكار مثل بني لاوي من اليهود، أو البراهمة من الهنود، لا يتميز فيها شعب عن شعب، ولا نسل عن نسل، وليس الاعتماد فيها على العرق والدم، بل على الحرص والشوق وحسن التلقي وزيادة التقدير والتفوق في الجهاد والاجتهاد والدين والتقوى «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»(الحجرات الآية١٣) هذا فإن شريعة الإسلام جاءت للإنسان بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو أرضه، فلا عنصرية في الدعوة ولا عصبية في التشريع ولا طبقية في الإسلام ولذلك كانت آثار إيجابيا في أقواله وأفعاله وخطبه ص تعليما وتوجيها وتدريبا للمجتمع البشري، بغض النظر عن اللون والدين.

نماذج من الخطب النبوية الشريفة:

النموذج الأول: خطبته ص في مكة:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالأحسن إحسانا والسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو النار أبدا، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد»٩

مناسبة الخطبة الأولى:

ترجع مناسبة هذه الخطبة إلى بداية الرسالة حين أمر الله تعالى رسوله ص بدعوة قومه إلى الإسلام في قوله تعالى: «وانذر عشيرتك الأقربين» فنادى على القبائل من قريش وهو على جبل الصفا، فلما اجتمعوا ألقى عليهم تلك الخطبة.

التحليل والتعليق على الخطبة الأولى:

بدأت هذه الخطبة بالحمد والثناء على الله تعالى وهذه طريقة جديدة في شأن الخطبة حيث أخذت الخطابة طابعها الإسلامي لأن الدعوة إلى الإيمان والدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد سمي الخطبة التي خلت من الحمد والثناء بالبتراء.

وقد مثل الرسول ص في هذه الخطبة نفسه أمام الجمهور أنه رائد أمين مصداقه قوله «إن الرائد لا يكذب أهله...الخ» فنصب بذلك نفسه كزعيم يمهد طريقة الحياة والنجاة لقومه ويجري إليهم الخير والسعادة. هذا فإن الرسول ص معروف لدى أمته بالأمانة والصدق والوفاء ومع ذلك فقد أقسم لهم أنه لو كذب على جميع الناس ما كذب عليهم، ولو خدع جميع الناس ما خدعهم، ليعرفهم مكانتهم في نفسه وحبه لهم وبره بهم وكيف لا، فهو الذي يقول عنه المولى العظيم: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمومنين رؤوف رحيم» (التوبة الآية ١٢٨) ثم عرض عليهم الرسالة الربانية وهي الدعوة إلى التوحيد بأن لا إله إلا الله وأنه رسول الله إليهم خاصة وإلى جميع الخلق كافة، ويثبت في الخطبة أن بعد الموت بعثا وأن بعد البعث حسابا، وأن كل إنسان سيجزى يوم القيامة عن عمله، وإن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا، وأنها لجنة أبد أو النار أبدا.

كان الرسول ص يؤيد ويثبت هذه العقيدة الإسلامية الجديدة لهم بالأسلوب الإنكاري حيث أتى بألوان من التوكيد والقسم، انظر مثلا: «إن الرائد لا يكذب أهله، وقوله: «والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم» وقوله والله لتموتن كما تنامون» ومن هذه العبارات توكيدات تخاطب حالة المنكرين للخبر.

من آثار الخطبة في إصلاح المجتمع: إرساخ العقيدة الإسلامية الغراء

فمن طرق رسول الله ص في إصلاح المجتمع إرساخ الإيمان في نفوس الناس، فقد أتت هذه الخطبة في فجر الإسلام فتضمنت كما تقدم القول عن وجود الله ووحدانيته ووجوب استسلام الوجه له، والإيمان بالبعث بعد الموت والحساب بعد البعث، فيظهر ذلك ويتمثل في اتباع أوامره واجتناب نواهيه جنبا والإيمان المطلق برسوله ص وحبه واقتداء بسنته جنبا آخر.

تمثل الرئيس الأمثل

من آثار الخطابة النبوية في إصلاح المجتمع في الخطبة التي نحن في صددها أنها تثبت أنه لا بد للرئيس أن يكون صادقا مصدوقا، وأمينا يؤتمن إليه، لأنه هو المثل الأعلى له في تصرفاتهم ونشاطاتهم اليومية، وهذا الرسول كان أسوة حسنة في الإيمان والأخلاق، فقد استغنم الرسول معرفته عند قومه بالأمانة والصدق والوفاء منذ صغره حتى وقت شبابه. ومصداق ذلك حين اختلف قريش فيمن يضع الحجر الأسود في موضعه بعد بناء الكعبة، ثم اتفقوا على أن أول داخل إلى الكعبة هو واضعه، فكان أول الداخل هو الرسول ص فقالوا إنا راضون بالأمين، وعند ذلك فأمر الرسول رئيس كل قبيلة أن يأخذ بطرف ردائه حتي رفعوه إلى موضعه، فوضعه في موضعه بيده الشريفة١٠. ولذلك يحرص المسلمون عل حفظ ذلك الأثر العظيم حرصا لم توفق إلى مثله أمة في حفظ آثار رسولها. فالصدق والأمانة من الأخلاق التي يجب أن يتمثل بها الراعي بين رعيته، وبذلك ينقادوا له ويمكنه الإدارة والحكومة. فهذه الفضيلة هي التي فقدها زعماء الدنيا اليوم خصوصا في دولتنا نيجيريا حيث بنيت السياسة والإدارة على الكذب والخيانة، ففشلوا في إدارتهم وحكومتهم معا.

الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب بعد البعث والجزاء بعد الحساب:

هذا، شاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن جعل الدنيا دار عمل وتزود للآخرة، فإن أحسن الإنسان الزاد تمتع وسعد سعادة الأبد، وإن أساء شقي شقاء الأبد. ولا يكون هذا إلا بعد الموت. اسمع قوله ص: «والله لتموتنّ كما تنامون» وقوله ص: «ولتبعثن كما تستيقظون» وقوله: ولتحاسبنّ بما تعملون» ولتجزون بالأحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا، أو النار أبدا.» فقد بين الرسول ص في هذه الخطبة للناس أن ما فعله الإنسان في الدنيا مكتوب عليه، كتبه الرسل الكرام، لا يغيبون عن العبد ولا يغفلون عن مراقبته، فما فعله المرء من كبير وصغير وعظيم وحقير يجده مكتوبا له أو عليه كما قال تعالى «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (الزلزال: الآية ٧-٨) فمن يعرف هذا كله فلا يقترف إثما ولا يرتكب جريمة، فيسود الأمن والسلامة في المجتمع البشري فيجر إلى السعادة الأبدية المنشودة.

النموذج الثاني: خطبته ص يوم فتح مكة:

وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسياقة الحاج، ألا وقتل الخطأ مثل العمد، بالسوط والعصا، فيهما الدية مغلظة، منها أربعون خليفة من بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء، الناس من آدم، وخلق آدم من تراب ثم تلا: يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» يا معشر قريش (أو يا أهل مكة) ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء»١١

مناسبة الخطبة الثانية: خطبته ص يوم فتح مكة

وقف الرسول ص على باب الكعبة مخاطبا أهل مكة وهذا عام فتح مكة حين أنزل الله تعالى: سورة الفتح : «إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ... فشرع في الكلمة المشرفة التي لا يريد سماعها المشركون، والتي من أجلها أخرج من مكة وعليه أذي وغزي وهي كلمة التوحيد لا إله إلا الله.

التحليل والتعليق على الخطبة:

بدأ ص الخطبة بإثبات وحدانية الله تعالى بدون شريك، كما أيثبت أمام الجمهور أن الله تعالى صدق وعده عليه بالفتح ونصره بهزم المشركين، لأنه ص قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك، وهو بالمدينة فلما خرجوا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع في قضية الصلح على أن يرجعوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيئ. فنزل الله تعالى «لقد صدق الله رسوله رؤيا بالحق ...١٢.

ثم أعلن ص أنه كل ادعاءات من مكرمة أو دماء أو مال قبل هذا اليوم فقد محاه الإسلام وهي تحت قدمي

رسول الله ص، وبقي الآن الوفادة على الله تعالى، وخدمات بيت الله الحرام، وسقاية حجاج بيت الله وزائريه.أما القتل بعد اليوم خطأ كان أو عمدا بالسوط أو بالسيف فهو سواء لابد من دفع الدية مبلغها أربعين من النياق الحاملة.

ثم نادى على قريش ووعظهم وأرشدهم وأعلمهم أن الله قد أذهب عنهم العادات والتقاليد الجاهلية التي كانوا عليها من قبل مثل التكبر والتفخر بالآباء والأجداد، وأثبت أن الناس عند الله سواسية كأسنان المشط، لأنهم جميعا من آدم، وآدم خلق من طين، واستشهد ص بقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات الآية ١٣)

وفي الختام، أظهر الرسول أن الدين الإسلام ليس دين العنف والإكراه كما يظن البعض أو كما يدعي البعض الآخر١٣ ومصداق ذلك قوله تعالى: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد ومن الغي...»(البقرة الآية ٢٥٦)

من آثار الخطبة في إصلاح المجتمع البشري

الأول: إثبات وجود الله تعالى قبل كل شيء:

إن المجتمع البشري اليوم في حاجة ماسة إلى من يرده إلى الله تعالى بإثبات وجود الله ووحدانيته بدون شريك. فهذا الرسول الذي أرسل إلى الناس كافة، فبمجرد أن ملك زمام السلطة والقدرة فأول ما دعا إليه هو أنه لا معبود بحق غير الله تعالى، ليس له شريك في ملكه وهو السميع العليم. وذكر الصحابة بوفاء الله تعالى لوعده الذي وعده صلى الله عليه وسلم.

العزم والجزم من قبل الرئيس

يبدو خلال هذه الخطبة تعاليم الإسلام حيث أن الرسول بمجرد أن يتم الفتح وأخذ على زمام السلطة حكم على الدعوات من قتل، وسلب، وسرقة، ومكرمة. فعل ذلك ليقضي على قيام بالثأر بينهم فإن هذا ترك أثرا خالدا ودرسا مخلدا لبني البشر، وأن الإسلام محا ما قبله.

تحريم القتل عمدا كان أو خطأ في المجتمع البشري:

فقد حرم الإسلام قتل النفس مهما كان الأمر في المجتمع الإنساني إلا بحق، «ألا وقتل الخطأ مثل العمد» فقد اقتدى أمم العالم ذلك في تحريم القتل في قانونهم» يقول القرآن فمن قتل نفسا متعمدا فجزاءه جهنم» (المائدة: الآية) والقصاص شرعه الله تعالى في شريعة اليهود وجعله واجبا عليهم، ولم يكن في شريعتهم قبول الدية قال تعالى: «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والسن بالسنّ والجروح قصاص...» الآية وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية»١٤ فذكر الآية السابقة. وعن المجاهد قال: «كتب عليكم في القتل الحر بالحر...» قال: كان بنو اسرائيل عليهم القصاص وليس عليهم الدية، فأنزل الله عز وجل عليهم الدية فجعلها على هذه الأمة تخفيفا، على ما كان على بني إسرائيل»١٥ ويظهر هذا تماما في قوله ص «ألا وقتل العمد والخطأ مثل العمد بالسوط والعصا، فيهما الدية مغلظة» وهذه من آثار الخطبة في كف أيدي أبناء المجتمع من ارتكاب جريمة القتل ليبقى المجتمع سعيدا.

بث روح العفو والصفح عند المقدرة

ومن آثار الخطبة غرس روح العفو عند المقدرة على الأعداء، لأن الرسول ص تمثل فيها أنه بعث ميسرا لا معسرا، «ولو كنت فظا غليظ القلب لأنفضوا من حولك» (آل عمران: الآية) نلمح في هذه الخطبة كيف أرسى الرسول روح الصفح في المجتمع المكي حيث أنه لما دخل الكعبة وكبر في جوانبها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه، ثم شرب زمزم وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة إليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ثم قال: يا معشر ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عليه السلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء»١٦ إن دل هذا على شيء فإنما يدل على غاية العرف والعفو عند الزعيم المثالي.

النموذج الثالث: خطبته في حجة الوداع:

«الحمد لله نحمده ونستعينه

ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة، وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فمن كانت عنده أمانة فليودها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسياقة، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد، فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، أيها الناس: إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرّم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنتا عشر شهرا في كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متوليات، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها النس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحد تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمنة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فلا ترجعنّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! قالوا نعم. فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»١٧.

مناسبة الخطبة الثالثة: خطبته في حجة الوداع:

ألقى رسول اله ص هذه الخطبة في حجته الأخيرة، وكأنه أوحي إليه بدنو أجله، بدأ الخطبة بما يسمى خطبة الحاجة، بالحمد والاستعانة والاستغفار والاستعاذة والشهادتين ووصية بالخير. ثم ذكر سبب إلقاء الخطبة وهو خوفه من أنه لا يعلم الغيب، اسمع وهو يقول: «فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا» وفيها بيّن الرسول ص للناس أمور دينهم، كحرمة الدماء، والمال والأمانة والربا والقتل، ثم بين الخطر من اتباع الشيطان اللئيم، وبين أن عدة الشهور عند الله اثنتا عشرة شهر في كتاب الله وأنّ فيها أربعة حرم لا يحل القتال فيها.ثم بيّن الرسول ص الحقوق الزوجية وما يتعلق بها، وبيّن وجوب الإخوة الإسلامية والمساواة والعدالة بين الناس في الحقوق، وفصل الكلام عن الميراث وما يتعلق به من أحكام وحقوق، واختتم الخطبة بالسلام.

آثار خطبة حجة الوداع في إصلاح المجتمع البشري: تكوين المجتمع البشري الصالح

لقد ظهر خلال هذه الخطبة أن الرسول أراد بها تصنيع أناس اجتماعيين، لأن الإسلام الذي جاء به

ص دين تجمع وألفة، ونزعة التعرف إلى الناس، والاختلاط بهم أصلية في تعاليمه، وأن الإسلام أيضا شديد الحرص على أن تكون شعائره العظمى مناسبة يتلقى فيها المسلمون ليتعارفوا على أدائها. ويستوحوا في جوها الطاهر عواطف الود والإخلاص. ويظهر هذا جليا من كلام الرسول حين أقبل على المستمعين قائلا: « اسمعوا مني فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم ...» فإن التوجيه والإرشاد في هذه الخطبة يشير إلى أن المعاملة الحسنة في المجتمع الإنساني حيث يقول أن قتل النفس وسلب أموال الناس حرام. والأمر بأداء الأمانة وعدم تعاطي الربا من المعاملة الحسنة تجب أن تسود في المجتمع البشري، ليعيشوا عيشة جميلة. فنهي عن القتل وتشريع الدية والقصاص يسبب الأمن في المجتمع البشري.

المساواة بين جميع الناس في الحقوق والواجبات

ومن تفوق الإسلام هو أن شريعته تقوم على العدالة بين جميع الناس، «بينما يميز التشريع الروماني بين الحاكم والمحكوم وبين الشريف والضعيف١٨. فقد أعلن الإسلام: أن الناس سواسية كأسنان المشط وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وفي هذه الخطبة التصريح بهذه القضية أعني المساواة حيث يقول الرسول ص: أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! قالوا نعم. فليبلغ الشاهد الغائب. فقد بيّن الرسول ص في هذه العبارات أن رسالة الإسلام لم تفرق بين الناس في أداء الحقوق الواجبة عليهم بل جعلتهم سواسية أمام هذه الحقوق، منها حق الله تعالى فلم يوجب الإيمان أو العبادة بأنواعها على العامة دون الخاصة، وكذلك حقوق الآخرين فإن الإسلام يساوي بين أتباعه في المثول أمام القضاء. ومدلول الخطبة هو أن الإسلام لا يفضل جنسا على جنس، بل إنّ عقيدة الإسلام أنصفت الناس وعدلت بينهم، ويقفون فيها على قدم المساواة حاكما ومحكوما سواء إلا بالتقوى. وهذا أثر بين من آثار هدي الرسول ص في المجتمع البشري.

حرصه على غرس روح التعاون والإخاء في المجتمع

وإذا نظرنا إلى الخطبة كما أشرت إليه من قبل نرى أنه أيضا حاول على أن يغرس حب التعاون والإخاء في المجتمع المكي وفي المجتمعات العالم الذين تبعوا تعاليمه وهديه ص اسمعه وهو يقول: أيها الناس: «إن المومنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ... الخ» فقد أمر ص أن يكون أفراد المجتمع حميعا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر. وفي الحديث أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» وقد جعل الرسول ص مفتاح التعاون والإخاء البدء بالسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»١٩ وحث الرسالة المحمدية على التآخي بين المسلمين كما قال تعالى: إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم» كل هذه من آثار هدي النبي ص في إسعاد وإصلاح المجتمع البشري.

بيان الحقوق الزوجية والتوصية بالمرأة

وفي هذه الخطبة أيضا الكلام على قضية عظمى من الحقوق الإسلامية وهي حق الزوج على زوجته وحق زوجة على زوجها. يثبت الرسول في الخطبة هذه الحقوق حيث قال: أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حق، ولكم عليهن حق...» ورد في الحديث النبوي: قال رجل من الصحابة: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت» يفهم خلال هذه الفقرة من الخطبة وجوب احترام شخصية المرأة وعدم إهانتها. قالت مأوي ستوب: إنّ احترام امرأة من أهم الأمور، لأن المرأة التي تشعر بأنها ضعيفة مستضعفة، تتعلم مختلف الأمور السيئة التي يمكن أن تتصف بها من كذب وخيانة ونفاق وغير ذلك»٢٠ ولا يجوز لزوج أن يتحول عنها حتى في الفراش الواحد ولا تتحول عنها إلى غرفة أخرى لقوله تعالى: واهجروهن في المضاجع واضربوهن» قال في الخطبة: «وتهجروهن في المضاجع وتضربون ضربا غير مبرح» وعلى الزوجة أن تطيع أمر زوجها

وتقوم بتربية أطفالها تربية إسلامية قوية، وأن تدخل عليها من يرضاه زوجها. ثم أوصى بالمرأة بخير قائلا: «ألا واستوصوا النساء خيرا» فمنهج الإسلام في نصيب المرأة في الميراث وسط بين إفراط القائلين بمساواتها بالرجل مما أدى إلى تشريدها وإلقائها في ميدان العمل المرهق نتيجة هذا التساوي وعدم كفالة الأخ له، وتفريط القائلين بحرمانها مطلقا. كل هذا من آثار الخطب النبوية في إيثار حياة العزة والشرف. كما يؤدي مهمة التوجيه والتعليم والتربية، وتدعو إلى التعقل والحكمة والرشاد والتعامل والتسامح في ساعات المروق والتهور والنزق وغيرها. ولهذا تعتبر الحظب النبوية من أكبر تعاليم في المجتمع البشري

الكلام عن الميراث الإسلامي وحقوق الأولاد:

ومن تفوق الإسلام على بقية الأديان شريعة التركة، فقد بين الإسلام نصيب كل من الوارثين ذكرا كان أو أنثى، ورفض موقف الأمم الأخرى في شأن الميراث حيث يقسم الإنسان التركة قبل وفاته أو يوصي للوارث مبلغا نصف التركة أو كلها. استمع إلى رسول الإسلام لترى كيف عالج هذا الداء الاجتماعي قائلا: أيها الناس: «إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث» وقوله: «ولا يجوز لوارث وصية» وقوله: «ولا يجوز وصية أكثر من الثلث» كل هذا لتوجيه تجاه المجتمع الإنساني لينقذه من الفوضى والفتنة بعد وفاة صاحب التركة. وأشار ص في الخطبة إلى تحريم الزنا وادعاء الولد إلى غير أبيه. الأمر الذي كان يسبب المشكلات في المجتمع.

الخاتمة

هذه المقالة التي بين يدي القارئ الكريم هي محاولة على التأمل والتفكر في هدي وتعاليم أفضل الخلق قاطبة محمد ص واستخراج الفوائد والدروس المستفادة منها في صور آثار ملموسة توجد في المجتمع البشري اليوم، إذ أن قرأءة كلام النبي ص والتأمل والتدبر فيه، واستخراج ما ينفع الناس منه لمما يتعبد به إلى الله تعالى. إذن فقد قمنا في هذه المقالة بدراسة ثلاثة خطب له ص واستخرجنا آثار تلك الخطب وما اتبعها من أحكام، وحقوق، ومسئوليات، وما بينتها أيضا من معاملات وعادات وثقافات وتقاليد في ارتفاع مستوى المجتمع البشري وإصلاحها حتى يعيش أفراد المجتمع في الأمن والسلامة والسعادة الأبدية.

الهوامش

١- أحمد سعد الدين بن الكاتب إبراهم، «الأسلوب الحديث في الخطب المنبرية في غرب أفريقيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص١

٢ المعجم الوسيط، الجزء والثاني، غير مؤرخ، ص٢٦٦.

٣- حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، «أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، طبع بمركز الدراسات والإعلام، الطبعة الثالث، داراشبليا، عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨، ص ٥١٣.

٤- د. عبد الجليل شلبي، «الخطابة وإعداد الخطيب»، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٩١٩٨٢م – ١٣٠٢هـ، ص١٠٣.

٥- د. عبد الجليل شلبي، المرجع نفسه، ص ١١٩

٦- Ilorin Journal of the Humanities. A publication of (CAILS). Vol ٥.No ٢ June، ٢٠٠٢. P. ٢٠٣.

٧- الجمهورية العراقية، وزارة التربية، «الثقافة الأدبية للصف الرابع الثانوي العام»، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ص٥٥.

٨- الجمهورية العراقية، المرجع نفسه، ص ٥٥
٩- حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، المرجع السابق، ١٥٩
١٠- عمر عبد الجبار، خلاصة نور اليقين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، غير مؤرخ.
١١- لجنة من العلماء، سيرة سيد المرسلين، المكتب التجاري والتوزيع والنشر، ببيروت، ص ١٧٦
١٢- لجنة من العلماء، المرجع السابق، ص ٧٩
١٣- حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، المرجع السابق، ص ٧٠
١٤- حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، المرجع السابق، ص ١٩٨
١٥- حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، المرجع السابق، ص ٢١٢
١٦ لجنة من العلماء، المرجع السابق، ص ٧٠
١٧- المرحوم السيد أحمد الهاشمي، «جواهر الأدب في أدبيات لغة العرب»، الجزء الأول، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ص ٦٧.
١٨- حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، المرجع السابق، ص ١٠٠
١٩- حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار، المرجع السابق، ص ٨٩
٢٠- محمد مهدي الإستانبولي، تحفة العروس أو الوزاج الإسلامي السعيد، دار المعرفة، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م